Journal Of the Iraqia University (75-3) February (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

دروس وعظ الامام ابن الجوزي وأثرها في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي (٥٢٠ـ ٥٩٧هـ)

م.د. هند جودت كاظم

كلية التربية للعلوم الصرفة- جامعة ديالى

The sermons of Imam Ibn al-Jawzi and their impact on social life During the Abbasid era (520-597 AH)

d.Hind Jawdat Kadhim
University of Diyala
College of Education for Pure Sciences
hind. jawdat@uodiyala.edu.iq

الملخص

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة السلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد .فقد شهد العصر العباسي نبوغ الكثير من العلماء والوعاظ والصالحين مما فاضت بأخبارهم الكتب ، وسارت باحاديثهم الركبان ، ومن الاسماء التي اخذت حيزها في التاريخ الاسلامي الامام ابن الجوزي الذي برع في العلوم المتعددة مصنفا وفقيها ومحدثا ومؤرخا ومفسرا ومفتيا وأديبا اضافة التي تميزه وانفراده في الوعظ حتى صار علما له في بغداد ، وقد كان لدروس وعظه الاثر الكبير في حياة الناس على اختلاف صورها ومنها الحياة الاجتماعية والتي كانت محط دراستنا لأهميتها فجاءت دراستنا تحت عنوان (دروس وعظ الامام ابن الجوزي وأثرها في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي (٥٢٠ - ٥٩٧هـ)) وقد اشتملت خطة البحث على ثلاثة مباحث وخاتمة .**الكلمات المفتاحية : دروس ، وعظ ، الاجتماعية ، العصر ، العباسي**

Summary

Praise be to God, Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon our Prophet Muhammad and upon his family and companions.The Abbasid era witnessed the brilliance of many scholars, preachers, and righteous people whose stories are filled with books and whose tales are widely circulated. Among the names that have taken their place in Islamic history is Imam Ibn al-Jawzi, who excelled in multiple sciences as an author, jurist, hadith scholar, historian, interpreter, mufti, and writer, in addition to his distinction and uniqueness in preaching, to the point that he became a renowned figure in Baghdad.His sermons had a great impact on people's lives in all their forms, including social life, which was the focus of our study due to its importance. Our study came under the title (The sermons of Imam Ibn al-Jawzi and their impact on social life in the Abbasid era (520-597 AH)). The research plan included three sections and a conclusion.**Keywords: Lessons , preaching , Social , The afternoon , Abbasi**

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فقد شهد العصر العباسي نبوغ الكثير من العلماء والوعاظ والصالحين مما فاضت بأخبارهم الكتب، وسارت باحاديثهم الركبان، ومن الاسماء التي اخذت حيزها في التاريخ الاسلامي الامام ابن الجوزي الذي برع في العلوم المتعددة مصنفا وفقيها ومحدثا ومؤرخا ومفسرا ومفتيا وأديبا اضافة التي تميزه وانفراده في الوعظ حتى صار علما له في بغداد، وقد كان لدروس وعظه الاثر الكبير في حياة الناس على اختلاف صورها ومنها الحياة الاجتماعية والتي كانت محط دراستنا لأهميتها فجاءت دراستنا تحت عنوان (دروس وعظ الامام ابن الجوزي وأثرها في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي (٥٢٠ ـــ ٥٩٧هـ)) وقد اشتملت خطة البحث على ثلاثة مباحث وخاتمة.درس المبحث الأول: مفهوم الوعظ ونبذة من حياة الامام ابن الجوزي، وقد جاء على مطلبين، خص المطلب الاول: مفهوم الوعظ، وتناول المطلب الثاني: نبذة من حياة الامام ابن الجوزي.أما المبحث الثاني فقد تناول مميزات وعظ الامام ابن الجوزي وقد جاء على أربعة مطالب، بين المطلب الأول: امتلاكه ادوات الوعظ والبركة في العمر، وخص المطلب الثاني: تفسيره للقرآن الكريم، وتناول المطلب الثالث: بلاغته وقوة تعبيره وذكاؤه وسرعة بديهته، واشتمل المطلب الرابع: مراعاة المصالح في الوعظ.وخص المبحث الثالث: مواعظ ابن الجوزي وأثرها في الحياة الاجتماعية، وقد جاء على ثلاثة مطالب، تناول المطلب الاول: قبول الناس له واجتماعهم لسماعه، ودرس المطلب الثاني: تأثير ابن الجوزي في الحياة الاجتماعية، وبين المطلب الثالث: استهدافه الطبقة الخاصة بالوعظ والنصيحة. وختمنا البحث بخاتمة بينا فيها اهم النتائج.

نسأل الله ان يبارك هذا العمل وان يقبله وان يجنبنا الزلل انه سميع مجيب، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: مفهوم الوعظ ونبذة من حياة الامام ابن الجوزي

المطلب الأول: مفهوم الوعظ

الوعظ في اللغة: من وعظ، يقول الخليل: (العِظَةُ: الموعظة. وَعَظْتُ الرّجلَ أَعِظُهُ عِظَةً وموعظة: واتَّعَظَ: تقبّل العِظَةَ، وهو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ. ومن أمثالِهم المعروفة: لا تَعِظيني وتَعَظْعَظي، أي: اتَّعظي أنتِ ودَعي موعظتي) (الفراهيدي، د.ت، ٢٢٨/٢).

وقال الجوهري: (الوَعْظُ: النصح والتذكير بالعواقب. تقول: وَعَظْتُهُ وَعْظاً وعِظَةً فاتَّعَظَ، أي قبل الموعظة. يقال: قبل الموعظة. يقال: " السعيدُ من وُعِظَ بغيره، والشقيُّ من اتعظ به غيره ")(الجوهري، ١٤٠٧هـ، ١١٨١/٣).وقال ابن سيده: (الوعظ والعظة والموعظة: تذكرتك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب، وعظته وعظا فاتعظ) (ابن سيده، ١٤١٧هـ، ٦٢/٤؛ ابن منظور، ١٤١٤هـ، ٤٦٦/٧).

أما اصطلاحا فقد ورد بتعاريف متقاربة المعنى:

يقول الجرجاني: (الوعظ: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب) (الجرجاني، ١٤٠٣هـ، ٢٥٣/١).

ويقول المناوي: (الوعظ: إهزاز النفس بموعود الجزاء ووعيده) (المناوي، ١٩٩٠، ٣٣٩/١).

وقال الراغب: (الوعظ زجر مقترن بتخويف) (المناوي، ١٩٩٠، ٣٣٩/١).

وقيل: (دعوة الأشياء بما فيها من العبرة للانقياد للإله الحق بما يخوفها) (المناوي، ١٩٩٠، ٣٣٩/١).

والمتأمل لهذه التعريفات يجدها لا تبتعد كثيرا عن المعنى اللغوي، فالوعظ هو ارشاد للناس وتذكيرهم بالله ورضوانه وطاعته والتزام امره واجتناب نهيه، ومداره الترغيب والترهيب والبشارة والانذار لإيصال المجتمع نحو السلامة والسعادة الدنيوية والاخروية.

المطلب الثاني: نبذة من حياة الامام ابن الجوزي

نقف في هذا المطلب عند شخصية كبيرة، تركت أثرا عظيما في التاريخ الاسلامي والانساني وهي المتمثلة بالإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، الحنبلي، الواعظ، جمال الدين أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. ولد في بغداد (سنة ٥٠٨ هـ)، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها. صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم من التفسير، والحديث، والفقه، والوعظ، والزهد، والتاريخ، والطب، وغير ذلك(ابن خلكان، ١٩٩٤، ٢٧٩/١؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢؛ ابن كثير، ١٤٠٧هـ، ٢٨/١٣).

له نحو ثلاث مئة مصنف، منها (تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والأخبار)، و (الاذكياء واخبارهم) و (مناقب عمر بن عبد العزيز) و (روح الارواح) و (المدهش) في المواعظ وغرائب الاخبار، و (المقيم المقعد) في دقائق العربية، و (صولة العقل على الهوى) في الاخلاق، و(تلبيس ابليس)، و(فنون الافنان في عيون علوم القرآن)، و(لقط المنافع) في الطب والفراسة عند العرب، و (المنتظم في تاريخ الملوك والامم)، و (الذهب المسبوك في سير الملوك) وكتاب (الحمقى والمغفلين) و (ألوفا في فضائل المصطفى)، و (صيد الخاطر) آراء وسوانح، و (الياقوتة) وعظ، و (المختار من أخبار المختار) و (مثير عزم الساكن إلى أشرف الأماكن) في تاريخ مكة والمدينة، وكتاب (الضعفاء والمتروكين) في

رجال الحديث، و و (غريب الحديث)، و (بحر الدموع) في الوعظ، و (الموضوعات في الأحاديث المرفوعات) و(زاد المسير في علم التفسير) (ابن خلكان، ١٩٩٤، ٢٧٩/١؛ ابن كثير، ١٤٠٧هـ، ٢٨/١٣؛ طاش كبرى زادة، ١٩٨٥، ٢٠٧/١).

يقول الذهبي: (برع في العلوم، وتفرد بالمنثور والمنظوم، وفاق على ادباء مصره، وعلا على فضلاء دهره، له التصانيف العديدة، سئل عن عددها فقال: زيادة على ثلاث مائة واربعين مصنفا، منها ما هو عشرون مجلدا، ومنها ما هو كراس واحد، ولم يترك فنا من الفنون الا وله فيه مصنف، كان اوحد زمانه، وما اظن الزمان يسمح بمثله) (الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢).وهنا يبين الذهبي مهارة ابن الجوزي الفائقة وتفوقه في الميادين المختلفة، وما كان ليكون ذلك بعد توفيق الله تعالى الا بجهد ومواصلة الليل بالنهار والابتعاد عن مشغلات الدنيا وملهياتها.

وقد نالته محنة في اواخر عمره، وذلك انهم وشوا الى الخليفة الناصر به بأمر اختلف في حقيقته، وذلك في الصيف فبينا هو جالس في داره في السرداب يكتب جاءه من اسمعه غليظ الكلام وشتمه وختم على كتبه وداره وشتت عياله فلما كان في اول الليل حملوه في سفينة واحدروه الى واسط فاقام خمسة ايام ما اكل طعاما وهو يومئذ ابن ثمانين سنة، فلما وصل الى واسط انزل في دار وحبس بها وجعل عليها بواب وكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه ويطبخ ويستقي الماء من البئر فبقي كذلك خمس سنين ولم يدخل فيها حماما(الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢)

وكانت وفاته بعد مرض دام خمسة ايام ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء في الثالث عشر من رمضان المبارك سنة ٥٩٧هـ في دار له قريبة من قبر معروف الكرخي بمحافظة قطفتا(ياقوت الحموي، ١٩٩٥، ٣٧٤/٤)، في الجانب الغربي من مدينة السلام بغداد(ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١٩/١؛ ابن خلكان، ١٩٩٤، ٢٧٩/١؛ ابن كثير، ١٤٠٧هـ، ٢٨/١٣).واجمعت المصادر على ان يوم وفاته كان يوما مشهودا ببغداد إذ ارتجت قلوب الناس لنبأ وفاته وغلقت الاسواق ونودي للصلاة عليه في جانبي بغداد وحملت جنازته على رؤوس الناس ثم ذهبوا به الى جامع المنصور للصلاة عليه فصلى عليه ابنه ابو القاسم علي وضاق الجامع على سعته بالناس فصلى عليه مرتان ثم حمل الى مقبرة باب حرب(ياقوت الحموي، ١٩٩٥، ٣٠٧/١) فدفن هناك بالقرب من الامام احمد رحمهم الله.

قال سبطه ابو المظفر: اوصى جدي ان يكتب على قبره:

ياكثيـــــر العفو عمن كثر الذنـــب لديه

جاءك المذنب يرجو الـ صفح عن جرم يديه

انا ضـــيف وجزاء الـ ضيف احسان اليه(ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١٩/١)

فهذه نبذة مختصرة من سيرة الامام ابن الجوزي، ولايسع المجال للتوسع أكثر، وتكفي الاشارة الى انه كان واسع المهارات والفنون، في العلم والفتيا والتأليف والوعظ حتى شاع صيته في الآفاق.

المبحث الثاني: مميزات وعظ الإمام ابن الجوزي

المطلب الأول: امتلاكه ادوات الوعظ والبركة في العمر

لقد عمل ابن الجوزي على نفسه طويلا رغم صغر سنه حتى تصدر للوعظ والإرشاد، فهو الفن الذي أحبه وبرع به، فأعد له العدة الكافية من العلوم المختلفة كعلوم القرآن والتفسير والفقه واصوله وعلم الكلام واللغة والأدب والتاريخ، وقد حفظ الكثير من الأحاديث والرقائق والأخبار والحكايات والقصص والأشعار، فكانت هذه الادوات مع الملكة التي وهبها الله له، والاخلاص الذي تسلح به، كانت هذه كفيلة بارتقائه منبر الوعظ لمدة طويلة قلما نجدها لواعظ آخر.

ان من الخصائص التي انعم الله بها على ابن الجوزي البركة في العمر حتى كان وعظه أكثر من سبعين عاما، وقد كان ابتداء وعظه سنة (٥٢٠هـ) حتى وفاته سنة (٥٩٧هـ) وهذا ما لم نجده عند غيره، فقد استثمر وقته في طاعة الله فبارك الله في عمره وعمله وانجازه، فترك اثرا طيبا لمن عاصره وجاء بعده.

قال ابن الجوزي رحمه الله في كتابه (المنتظم) عن احداث سنة (٥٢٠هـ): (وفي هذه السنة حملت الى ابي القاسم علي بن يعلى العلوي وانا صغير السن فلقنني كلمات من الوعظ والبسني قميصا من الفوط ثم جلس لوداع اهل بغداد عند السور مستندا الى الرباط الذي في اخر الحلبة، ورقاني الى المنبر فاوردت الكلمات وحزر الجمع يومئذ فكانوا نحو خمسين الفا) (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ، ٢٣٦/١٧)

ويذكر ابن الجوزي ذلك في موضع اخر في كتابه (المنتظم) ولكن في احداث سنة (٥٢٧هـ) فيقول في ترجمة (علي بن يعلى بن عوض ابو القاسم العلوي الهروي) ما نصه: (وكان له القبول بنيسابور وغيرها وورد بغداد فوعظ وسمع فيها مسند الامام احمد على شيخنا ابي القاسم بن الحصين وكان يورد الاحاديث بأسانيدها ويظهر السنة، فحصل له ببغداد مال، وحملت اليه وانا صغير السن وحفظني مجلسا من الوعظ

فتكلمت بين يديه يوم ودع الناس عند سور بغداد ثم خرج وورد مرو فتوفي بمرو الروذ في هذه السنة ودفن بها) (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ، ٢٧٩/١٧).

وبناء على هذه الرواية ظن البعض ان اول وعظه كان في سنة (٥٢٧هـ) لانه ذكر هنا انه وعظ امام الشيخ ابي القاسم علي بن يعلي، لكن الحقيقة ان ابن الجوزي يذكر هنا في احداث سنة ٥٢٧هـ وفاة الشيخ ابي القاسم علي بن يعلي وليس سنة وعظه امامه، وانما الذي يبين تاريخ وعظه الاول هو ماذكرناه في النص السابق من الكتاب نفسه في احداث سنة (٥٢٠هـ) والله تعالى أعلم.

ان هاتين الروايتين التاريخيتين التي رواهما ابن الجوزي نفسه تبين المرحلة التأسيسية للتفنن في الوعظ والمهارة فيه، فقد رسم لنفسه منهجا سليما واضحا للترقي النفسي والاخلاقي والعلمي بالتزامه توجيه شيخه ومعلمه، وهذا من اسباب النجاح والتميز.

المطلب الثاني: تفسيره للقرآن الكريم

لقد انفرد الامام ابن الجوزي عن غيره من العلماء والمفسرين والوعاظ بانه أكمل تفسير القرآن الكريم في مجالس وعظه، وهذه ميزة لم تعرف لغيره قديما أو حديثا، وقد كان ذلك في سنة (٥٧٠هـ) وفي ذلك يقول رحمه الله: (وفي يوم السبت سابع عشر جمادى الاولى: انتهى تفسيري للقران في المجلس على المنبر فاني كنت اذكر في كل مجلس منه ايات من اول الختمة على الترتيب الى ان تم فسجدت على المنبر سجدة الشكر وقلت: ما عرفت ان واعظا فسر القران كله في مجلس الوعظ منذ نزل القران فالحمد لله المنعم، ثم ابتدأت يومئذ في اول ختمة وانا افسرها على الترتيب والله قادر على الانعام بالإتمام والزيادة من فضله) (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ، ٢١٣/١٨).

وسنأخذ امثلة عن طريقة عرضه وتفسيره للآيات القرآنية، وسنقف مع ابن جبير الرحالة والاديب الاندلسي الذي وثق رحلته ومشاهداته بنفسه وليس من رأى كمن سمع، ومن هنا فلنا مع كتابه وقفات، وسوف ننهل من وصفه عبر وعظات، يقول ابن جبير: (ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، أنه يصعد المنبر ويبتدئ القرّاء بالقرآن، وعددهم نيف على العشرين قارئا، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة يتلونها على نسق بتطريب وتشويق، فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة، وقد أتوا بآيات مشتبهات، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عددا، أو يسميها نسقا) (ابن جبير، د.ت، ٢٠١/١).

انه وصف بديع لتفسير القرآن الكريم، وفيه رسالة لكل من يتصدى لذلك، وفيه تلون في الاصوات وفي النص دلالة واضحة على عظيم اهتمامه بهذا الدرس القرآني الماتع كيف لا وهو يتعلق بكلام الخالق سبحانه وتعالى.

ويسترسل ابن جبير فيقول: (فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في ايراد خطبته، عجلا مبتدرا، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررا، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقرأ، وأتى بها على نسق القراءة لها، لا مقدما ولا مؤخرا. ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها. فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلا، ويورد الخطبة الغراء بها عجلا! «أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون»، «ان هذا لهو الفضل المبين» فحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات ليس الخبر عنه كالخبر!) (ابن جبير، د.ت، ٢٠١/١).

والمتأمل لهذه الرواية نجد التعجب والانبهار من ابن جبير بشخصية ابن الجوزي وطريقة عرضه لتفسير النص القرآني فيقول: (الامام الغريب الشأن) كأنه لم تقع عينه على غيره في هذا الميدان، ثم تبين الرواية البلاغة العالية في ايراد القوافي، وهذا ان دل فإنما يدل على الملكة الراسخة في لبه وفؤاده.

وها هو ابن جبير يتلهف للعودة لمجلس وعظ ابن الجوزي فقد بقي اللقاء الاول عالقا في خياله لا يستطيع مغادرته، وهو هنا لا يبرح ان يصف مشاهداته للأمكنة وكأنها وظيفته الاساسية لتوثيق ذلك فيصف المشهد وصفا دقيقا فيقول: (ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له، بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر، بباب بدر في ساحة قصور الخليفة، ومناظره مشرفة عليه. وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة، وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم. ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع، وقد بسط بالحصر. وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس. فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور.) (ابن جبير، د.ت، ٢٠١/١).

وهنا يأتي الركن الابرز في الوصف، والمهمة الكبرى للرواية فيقول: (وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم، فصعد المنبر، وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب، وشوّقوا ما شاءوا، وأطربوا ما أرادوا. وبدرت العيون بارسال الدموع. فلما فرغوا من القراءة، وقد احصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغرّاء، واتى

بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات، ومشـــى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى أن أكملها، وكانت الآية «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» فتمادى على هذا السين وحسن أي تحسين) (ابن جبير، د.ت، ٢٠١/١).

ان في رواية ابن جبير التاريخية لدروس وعظ ابن الجوزي منهج امثل لكل واعظ ينبغي ان يدرس في المجالات التربوية، ففيه بيان لحقيقة المعلم والمربي من التواضـــع والتروي، والاعداد للدرس بما ينبغي ويتلاءم فهو يعطي لكل درس حقه، يقول ابن جبير: (فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه، ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته، وكنى عنها بالستر الأشرف، والجناب الأرأف. ثم سلك سبيله في الوعظ، كل ذلك بديهة لا روية؛ ويصـل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى. فأرسلت وابلها العيون، وابدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، وبالتوبة معلنين، وطاشـــت الألباب والعقول، وكثر الوله والذهول، وصـــارت النفوس لا تملك تحصيلا، ولا تميّز معقولا، ولا تجد للصبر سبيلا.) (ابن جبير، د.ت، ٢٠١/١).

ان المتأمل لهذه الروايات يجد التدبر العالي للنصـــوص القرآنية، والتمعن في المراد منها، وحث الجالســـين للعيش معها والعمل بمقتضاها.

المطلب الثالث: بلاغته وقوة تعبيره وذكاؤه وسرعة بديهته

كما تميز ابن الجوزي بتمكنه من البلاغة والبيان، وقوة الفطنة والنباهة وحدة الذكاء، وكان يتفنن في صـياغة العبارة وصـناعة الاشـارة، يقول عماد الدين الأصـبهاني: (واعظ، صـنيع العبارة، بديع الإشـارة، مولع بالتجنيس في لفظه، والتأنيس في وعظه، وله من القلوب قبولها، حسـن الشمائل، قد مزجت من اللطافة والكياسة شمولها) (الأصبهاني، ١٩٧١، ٢٦١/٢).

وقال ابن خلكان: (علامة عصره وامام وقته في الحديث وصناعة الوعظ صنف في فنون عديدة، وكتبه اكثر من ان تعد) (ابن خلكان، ١٩٩٤، ٣٢١/٢).

وقال الدبيثي: (وله في الوعظ العبارة الرائقة، والاشارات الفائقة، والمعاني الدقيقة، والاستعارة الرشيقة) (سبط ابن الجوزي، ١٤٣٤هـــ، ٣١١/٨؛ ابن رجب الحنبلي، ١٤٢٥هـ، ٤١٨/٣).

وعن سرعة البديهة وحضـور الجواب يقول ابن جبير: (وفي أثناء مجلسـه ذلك يبتدرون المسـائل، وتطير اليه الرقاع، فيجاوب أسـرع من طرفة عين. وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا اله سواه.) (ابن جبير، د.ت، ٢٠٣/١)

ويضـيف ابن جبير متحدثا عن مشـاهداته لمجلس وعظه في بغداد: (ثم شـاهدنا صـبيحة يوم السبت بعده مجلس الشـيخ الفقيه، الإمام الأوحد، جمال الدين أبي الفضـائل بن علي الجوزي، بازاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصـال من قصـور الخليفة وبمقربة من باب البصـيلة آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل يوم سبت، فشـاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصـيد، آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصـوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصـناعة، والمشـهود له بالسـبق الكريم في البلاغة والبراعة ومالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدّر، فاما نظمه فرضـــي الطباع، مهياري الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقسّ وسحبان) (ابن جبير، د.ت، ٢٠٣/١).

كما يستعرض ابن جبير استشهاد ابن الجوزي بالشعر فيقول: (ثم في اثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشـعل القلوب وجدا، ويعود موضـعها النسـيبي زهدا. وكان آخر ما أنشـده من ذلك، وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصـابت المقاتل سهام ذلك الكلام:

أين فؤادي أذابـــــه الوجد وأين قلبي فما صـحا بعد

يا سعد زدني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه، الى أن خاف الإفحام، فابتدر القيام، ونزل عن المنبر دهشـــا عجلا، وقد أطار القلوب وجلا، وترك الناس على أحر من الجمر، يشـيعونه بالمدامع الحمر. فمن معلن بالانتحاب، ومن متعفر في التراب. فيا له من مشـــهد ما أهول مرآه، وما أســعد من رآه! نفعنا الله ببركته، وجعلنا ممن فاز به بنصـيب من رحمته، بمنّه وفضـــله) (ابن جبير، د.ت، ٢٠٣/١).

ويختم وصفه لما شاهد في هذا المجلس بقوله: (ففرغ من انشاده وقد هز المجلس طربا، ثم أخذ في شأنه وتمادى في ايراد سحر بيانه، وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل، فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده، لا اله غيره) (ابن جبير، د.ت، ٢٠٤/١).

ومن بلاغة ابن الجوزي انه يخاطب الناس بعقولهم، ولا يتكلف الصنعة معهم، فهو يقول: (لا تسمع ممن يقول الجوهر والعرض، والاسم والمسمى، والتلاوة والمتلو؛ لأنه شيء لا تحيط به أوهام العوام، بل قل: آمنت بما جاء من عند الله، وبما صح عن رسول الله) (الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢).

ومن كلامه في مجالس وعظه: (عقارب المنايا تلسع، وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس، وماء الحياة في إناء العمر يرشح بالأنفاس) (الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢).

وقال لصاحب: (أنت في أوسع العذر من التأخير عني لثقتي بك، وفي أضيقه من شوقي إليك) (الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢).

ومن بلاغته ضربه للأمثال وتقريب الصورة للمستمع، فيقول: (قلت يوما في الوعظ: أيها الشاب انت في بادية، ومعك جواهر نفيسة وتريد أن تقدم بها على بلد الجزاء، فاحذر ان يلقاك غرار من الهوى فيشتري ما معك بأدون ثمن، فتقدم البلد فترى الرابحين فتقع أسفا وتبكي لهفا، وتقول: (يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) هيهات أن يرد الأسف ما سلف) (ابن الجوزي، د.ت، ٥٠/١)

ثم يعقب ذلك بأبيات من الشعر في المعنى نفسه فيقول(ابن الجوزي، د.ت، ٥٠/١):

أَمّا الشَبابُ فَظُلمَةٌ لِلمُهتَدى ... وَبِهِ ضَلالُ الجاهِلِ المُتَمَرِدِ

لَيسَ الَّذي تَرَكَ الذُنوبَ مَشيباً ... كَالتارِكِ لَها وَقتَ شَعرٍ أَسوَدِ

فَافرَح إِذا جاهَدتَ نَفسَكَ صابِراً ... يا صاحِ صِح في اللَهوِ يا نارُ اِخمِدي

اِغنَم مَدِيحَةَ يُوسُفَ في صَبرِهِ ... وَاِحذَر تَعَجلَ آدَمَ في المَفسَدِ

لَولا اِجتَباهُ لَكانَ شَيناً فاضِحاً ... يَعصى فَيَالَكَ مِن حَزينٍ مُكمَدِ

فَاِقمَعهُ بِالصَبرِ الجَميلِ وَدُم عَلى ... الصَومِ الطَويلِ فَإِنَّهُ كَالمَبرَدِ

وَاّغضُض جُفونَكَ عَن حَرامٍ وَاِقتَنِع ... بِحَلالِ ما حَصَّلتَ تُحمَد في غَدِ

وَدَعِ الصَبا فَاللَهُ يَحمدُ صابِراً ... يا نفسُ هَذا مَوسِمٌ فَتَزَوَّدي

الصَبرُ عَن شَهوَاتِ نَفسِكَ تَوبَةٌ ... فَاِثبُت وَغالِط شَهوَةً لَم تَرقُدِ

تُحمَد هُناكَ إِذا هَواكَ تَرَكتَهُ ... يا سَعدُ تَسعَد بِالمَعاشِ الأَرغَدِ

إِن شِئتَ نَيلَ المَفاخِرَ ... في الطَريقِ الأَبعَدِ

يتبين لنا قوة تأثير التفنن على السامعين، فكان رحمه الله مبدعا في تلوين الخطاب واستعمال الفنون البلاغية وعلى كافة المستويات.

المطلب الرابع: مراعاة المصالح في الوعظ

ومن مميزات وعظ الامام ابن الجوزي مراعاته المصالح في الوعظ، ولا شك ان هناك الكثير من العلماء من التزم ذلك، ولكن يبقى هذا الامر من اساسيات النجاح، وقد كان هذا من ثوابته رحمه الله، فيقول: (تاملت اشياء تجري في مجالس الوعظ يعقدها العوام وجال العلماء قربة وهي منكر وبعد، وذلك ان المقرئ يطرب ويخرج الالحان الى الغناء، والواعظ ينشد بتطريب اشعار المجنون وليلى فيصفق هذا، ويحرق ثوبه هذا، ويعتقدن ان ذلك قربة! ومعلوم ان هذه الالحان كالوسيقا توجب طربا للنفوس ونشوة، فالتعرض بما يوجب الفساد غلط عظيم، وينبغي الاحتساب على الوعاظ في هذا) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١١٤/١).

ويضيف رحمه الله: (وفي الوعاظ من يتكلم على طريقة المعرفة والمحبة فترى الحائك والسوقي الذي لا يعرف فرائض تلك الصلاة يمزق اثوابه دعوة لمحبة الله تعالى، والضافي حالا منهم ـ وهو أصلحهم ـ يتخايل بوهمه شخصا هو الخالق فيبكيه شوقه اليه لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله وليس ما يتخايلونه المعبود لان المعبود لايقع في خيال) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/١١٤).

وهو هنا يرسم منهجا للوعاظ وطريقا سليما لهم فيقول:(وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب ولايكادون ينتفعون بمر الحق الا ان الواعظ مامور بان لا يتعدى الصواب، ولا يتعرض لما يفسدهم بل يجذبهم الى ما يصلح بألطف وجه وهذا يحتاج الى صناعة، فان من العوام من يعجبه حسن اللفظ ومنهم من يعجبه الاشارة ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/١١٤).

وهو بمنهجه هذا الذي خطه لنفسه ولغيره يبين الطريق الحق ويعرفهم به لان احوج الناس للبلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم، لكنه ينبغي ان ينظر في اللازم الجواب وان يعطيهم من المباح في اللفظ قدر الملح في الطعام، ثم يجتذبهم الى العزائم ويعرفهم الطريق الحق(ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/١١٤).

ثم يستشهد بكلام الامام احمد بن حنبل في ذلك فيقول: (وقد حضر احمد بن حنبل فسمع كلام الحارث المحاسبي فبكى ثم قال: لا يعجبني الحضور وانما بكى لان الحال اوجبت البكاء) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/١١٤).

ويقف عند تخاليط القصاص فيحذر منهم فيقول: (كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص فينهون عن الحضور عندهم وهذا على الاطلاق لا يحسن اليوم، لأنه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم فرأوا حضور القصص صادا لهم، واليوم كثر الاعراض عن العلم فانفع ما للعامي مجلس الوعظ يرده عن ذنب ويحركه الى توبة وانما الخلل في القاص فليتق الله عزوجل) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/١١٤).

وقد عقد فصلا في كتابه (صيد الخاطر) سماه (فصل: اضر ما على العوام المتكلمون) يحذر فيه من التحدث بمسائل الكلام التي تبتعد بالسامع عن غايات الوعظ وتجعله يعيش في دوامة التفكر بما لا يعرف يقول رحمه الله: (اضر ما على العوام المتكلمون فانهم يخلطون عقائدهم بما يسمعونه منهم) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/٢٨٤).

ويقول ايضا: (من اقبح الاشياء ان يحضر العامي الذي لا يعرف اركان الصلاة ولا الربا في البيع مجلس الوعظ، فلا ينهاه عن التواني في الصلاة ولا يعلمه الخلاص من الربا بل يقول له: القرآن قائم بالذات والذي عندنا مخلوق فيهون القران عند ذلك العامي فيحلف به على الكذب) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/٢٨٤).

ويضيف في ذلك ايضا: (اوليس السرب الاول ماتكلموا في شيء من هذا وان كانوا تعرضوا ببعض الاصول ثم جاء فقهاء الامصار فنهوا عن الخوض في الكلام لعلمهم مايجلب وما يجتنب، ومن ثم لم يقنع بعقيدة مثل عقيدة الصحابة ولابطريق مثل طريق احمد والشافعي في ترك الخوض فلا كان من كان) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ١/٢٨٤).

لقد رسم ابن الجوزي في هذه المواعظ منهجا سليما افادت منه الاجيال كثيرا، وهو قد قرن العلم بالعمل، والباطن مع الظاهر فكتب له القبول في الارض، نسأل الله ان ينفعه بذلك وان يعقبه خيرا.

المبحث الثالث: مواعظ ابن الجوزي وأثرها في الحياة الاجتماعية

المطلب الأول: قبول الناس له واجتماعهم لسماعه

رزق الله تعالى الامام ابن الجوزي القبول بشكل لافت للنظر، وعلى الاصعدة المتعددة، ففي مجال الوعظ، ذاع صيته وبلغت اخباره ارجاء الارض، وكانت الناس تفد اليه لتسمع مواعظه وتحضر دروسه.

وفي مجال التصنيف والتأليف رزقه الله البركة في ذلك حتى كان من أشهر المصنفين في التأريخ الاسلامي، وقد تهافت الناس على اقتناء كتبه والانتهال منها وعلى تعاقب الازمان.

وفي مجال الفتيا والصدارة في العلم عند الخاصة والعامة كانت له قدم السبق، وقد تصدى لذلك ونال القبول والاستحسان من الجميع.

قال مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي: (الحافظ الكبير جمال الدين التيمي البكري البغدادي الحنبلي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في انواع العلم من التفسير والحديث والفقه والزهد والوعظ والاخبار والتاريخ والطب وغير ذلك) (الذهبي، د.ت، ٣/١١٩).

وأضاف مشيرا الى تميزه بالوعظ: (ووعظ في صغره وفاق فيه الاقران ونظم ونظم الشعر المليح وكتب بخطه مالا يوصف وراى من القبول والاحترام مالا مزيد عليه، وحكى غير مرة ان مجلسه حزر بمائة الف، وحضر مجلسه الخليفة المستضيء مرات من وراء الستر) (الذهبي، د.ت، ٣/١١٩).

وهاهو ابن الجوزي يذكر لنا امثلة حية لمجالس وعظه وقبول الناس له، وتشوقهم لوعظه فيقول: (ووعدت بالجلوس في جامع المنصور فتكلمت يوم الاثنين سادس عشر جمادى الاولى فبات في الجامع خلق كثير، وختمت ختمات، واجتمع للمجلس بكرة ما حزر بمائة الف وتاب خلق كثير، وقطعت شعور ثم نزلت فمضيت الى زيارة قبر احمد فتبعني من حزر بخمسة الآف).

ثم يضيف مصورا ابتهاج الناس لإقباله عليهم وتلهفهم لسماعه: (وسألني اهل الحربية ان اعقد عندهم مجلسا للوعظ ليلة فوعدتهم ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الاول فانقلبت بغداد، وعبر اهلها عبورا زاد على نصف شعبان زيادة كثيرة فعبرت الى باب البصرة فدخلتها بعد المغرب فتلقاني اهلها بالشموع الكثيرة، وصحبني منها خلق عظيم فلما خرجت من باب البصرة رأيت اهل الحربية قد اقبلوا بشموع لا يمكن احصاؤها فأضيفت الى شموع اهل البصرة فحزرت بألف شمعة فما رأيت البرية الا مملوءة ضوءا وخرج اهل المحال الرجال والنساء والصبيان ينظرون، وكان الزحام في البرية كالزحام في سوق الثلاثاء فدخلت الحربية وقد امتلا الشارع واكتريت الرواشن من وقت الضحى فلو قيل ان الذين خرجوا يطلبون المجلس وسعوا في الصحراء بين باب البصرة والحربية مع المجتمعين في المجلس كانوا ثلاثمائة الف ما ابعد القائل) (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ، ٢٠٣/١٨).

ونأخذ شاهدا آخر على اقبال الناس عليه، فقد برز في عصره للوعظ ايضا محمد بن علي بن نصر الدوري الواعظ ابو المظفر(ابن رجب الحنبلي، ١٤٢٥هـ، ١٦٠/٣) الذي قدم بغداد في شبيبته واستوطنها وقرأ بنفسه على الشيوخ وقال الشعر الحسن وفتح عليه في الوعظ، ووعظ بعده اماكن حتى صار يضاهي ابا الفرج بن الجوزي ويزاحمه في اماكنه، ووعظ عند تربة ام الخليفة الناصر سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكان يجلس يوم الاربعاء ويجلس ابو الفرج يوم السبت ثم اذن للدوري بالجلوس يوم السبت فاجتمع الخلق ظنا منهم ان ابن الجوزي هو الذي يتكلم فلما راوا الدوري انصرف كثير منهم وسبوا الدوري واصحابه وخيف من وقوع فتنة فيعث استاذا لدار ابن يونس واحضر ابن الجوزي وطيب قلبه وقال له: ان السلطان لم يعلم بهذه الحال وانما وقع تلبيس ثم رأوا المصلحة في منع جميع الوعاظ فمنعوا(ابن رجب الحنبلي، ١٤٢٥هـ، ١٦٠/٣).

ولما اعتقل الشيخ ابن الجوزي بواسط خلا للدوري الجو فكان يعظ مكانه عند التربة واتفق ان الشيخ لما رجع الى بغداد ودخلها يوم السبت تاسع عشر جمادى الاخرة سنة خمس وتسعين فوصل البشير بانه قد وصل والدوري يعظ مكانه فبادر الناس من المجلس لتلقيه فجعل الدوري يقول: ما هذه الاهوية التي انتم عليها عاكفون وقطع عليه المجلس(ابن رجب الحنبلي، ١٤٢٥هـ، ١٦٠/٣).

وهذه الروايات لا تقلل من قيمة الدوري وانما تبين مكانة ابن الجوزي العالية في الوعظ والتأثير وربما لو كان الدوري في زمان او مكان آخر لذاع صيته واشتهرت اخباره، وقد كان هذا العصر الذي عاشه ابن الجوزي في بغداد عصرا حافلا بالوعاظ ومنهم على سبيل المثال الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي كتب الله له القبول ايضا وان كان في الزمن اسبق من الامام ابن الجوزي الا انه عاصره وترجم له في كتابه، ومن ذلك قوله في ترجمته: (وكان له سمت وصمت فضاقت مدرسته بالناس، فكان يجلس عند سور بغداد مستندا الى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير فعمرت المدرسة ووسعت) (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ، ١٧٣/١٨).

ومن عوامل وأسباب القبول له صدقه واخلاصه وابتغاؤه وجه الله تعالى، وفي ذلك يروي انه قال له قائل: ما نمت البارحة من شوقي إلى المجلس، قال: لأنك تريد أن تتفرج، وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت(الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢).

وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: (كان زاهدا في الدنيا متقللا منها، وكان يختم القان في كل سبعة ايام ولا يخرج من بيته الا الى الجامع للجمعة وللمجلس وما مازح احدا قط ولا لعب مع صبي ولا اكل من جهة لايتيقن حلها، وما زال على ذلك الاسلوب حتى توفاه الله) (سبط ابن الجوزي، ١٤٣٤هـ، ٣١١/٨).

ولقد كان ابن الجوزي يراجع نفسه دائما ويقف عند مداخل الشيطان ويجتهد في مدافعته فيقول: (ما زالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعظ وتوبة التائبين ورؤية الزاهدين الى الزهد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان فان الشيطان يرى انه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٥٥/١).

ويضيف: (فكان الشيطان لبعد غوره في الشر رآني اجتذب الى من اجتذب منه فاراد ان يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمن اجتذبه من يده ولقد حسن لي الانقطاع عن المجالس وقال: لا يخلو من تصنع الخلق لارذيلة واما ان اقصد الناس بما لا يجوز في الشرع فمعاذ الله) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٥٥/١).

وهو يقف على اعتزال الناس وحث الشيطان له على ذلك فيقول: (رأيته يريني في التزهد قطع اسباب ظاهرة الاباحة من الاكتساب فقلت له: فان طاب لي الزهد وتمكنت من العزلة فنفد ما بيدي او احتاج بعض عائلتي الست اعود القهقرى فدعني اجمع ما يسد خلتي ويصونني عن مسالة) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٥٥/١).

ومن هنا نجد قيمة ابن الجوزي وكيف انه عمل على نفسه، وصانها عن الشواغل المبعدة عن الدين، فكان هذا الاسم الفارق في تأريخنا العظيم

المطلب الثاني: تأثير ابن الجوزي في الحياة الاجتماعية

لقد كانت بصمات ابن الجوزي في الحياة الاجتماعية في القرن السادس الهجري ظاهرة جلية، وقد كان يدعو الى حياة اجتماعية كريمة تتمثل فيها روابط الإسلام بكل معانيها والتي تفيض بالبر والتسامح والعطاء والخير والهناء والعدالة والتعاون والأمن والطمأنينة، والسعادة في كل الميادين في الروابط الأسرية الرحيمة وفي العلاقات الاجتماعية العامة

ان اهتمام الاسلام بالأخلاق والآداب له اسباب كثيرة منها دوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الجانب المادي والمعنوي اضافة للجوانب الأخرى وذلك حق لا يمكن لاحد ان يماري فيه فالأخلاق ضرورة للحياة الانسانية ولو اهملت لسادت الخيانة والكذب والفسق والتعدي على حرمات الناس، والسرقة وسفك الدماء، ولازالت كل المعاني الانسانية التي بها صلاح المجتمع وسلامته والتي تنظم علاقات الناس وتهذب اطباعهم كالمحبة، والمودة والاخلاص والتراحم(يالجن، ١٤٢٤هـ، ١٠٨/١).

ولنقف على تأثير ابن الجوزي في المجتمع ولمدة زمنية طويلة ظلت باقية حتى بعد وفاته.

ان المتأمل لسيرة ابن الجوزي في الوعظ يجد انه عالم العراق وواعظ الآفاق، فقد بدأ الوعظ في مقتبل عمره، وبداية صباه، وان دل ذلك على شيء فهو يدل ذكاء حاد، وذاكرة واعية، ونبوغ مبكر، وبديهة حاضرة، وقد كان لوعظه في هذا السن الاثر الكبير عليه وعلى المجتمع فقد كان يجتمع حوله الناس، يستمعون اليه، ويأخذون نصحه وتوجيهه، ولاشك ان ذلك صورة من صور القبول، يقول ابن رجب رحمه الله: (ان مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير ولم يسمع بمثلها، وكانت عظيمة النفع يتذكر بها الغافلون، ويتعلم منها الجاهلون، ويتوب فيها المذنبون، ويسلم فيها المشركون) (ابن رجب الحنبلي، ١٤٢٥هـ، ٤١/٣).

وعودة اخرى لابن جبير في اثناء حديثه لرحلته الى بغداد ووصفه لمجالس ابن الجوزي وعظيم تأثيره في المجتمع فيقول: (ثم انه اتى بعد فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقا وذابت بها الانفس احتراقا، ان علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج، واعلن التائبون بالصياح وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعيا له، ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الاذرع اليه، فشاهدنا هولا يملا النفوس إنابة وندامة ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم تركب ثبج البحر، وتعتسف مغازات القفر الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على ان منَّ بلقاء من تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله) (ابن جبير، د.ت، ٢٠١/١).

وربما يشعر البعض بالمبالغة في وصف هذه المجالس، ولكن بلا شك ان دروس الوعظ عند ابن الجوزي هي شيء استثنائي كما تواترت روايات المؤرخين بذلك هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان الوصف الذي ذكره ابن جبير يبين حال ذلك وهو رحالة وناقد ومحلل ومؤرخ بالوقت نفسه، وقد عرف بكتابه الذي ينتقد ما يشهد في كثير من الاحيان، وقد كان شاهد عيان لهذه المجالس، يقول ابن جبير: (وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بازاء داره على الشط الشرقي فأخذت معجزاته البيانية ماخذها فشاهدنا من امره عجبا، صعد بوعظه انفاس الحاضرين سحبا، واسال من ادمعهم وابلا سبكا ثم جعل يردد في آخر مجلسه ابياتا من النسيب شوقا زهديا وطربا الى ان غلبته الرقة فوثب من اعلى منبره والها مكتئبا وغادر الكل متندما على نفسه منتحبا لهفان ينادي: يا حسرتا، واحربا، والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحى، وكل منهم بعد من سكرته ما صحا، فسبحان من خلقه عبرة لأولي الالباب، وجعله لتوبة عباده اقوى الاسباب، لا اله سواه) (ابن جبير، د.ت، ٢٠٦/١).

وينقل لنا ابن الجوزي هو بنفسه ذلك التأثير في كثير من كتبه، يقول رحمه الله: (ووضع لي القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدي نحو من مائتين من أهل الذمة، ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف، وقد قطعت أكثر من عشرين الف سالف مما يتعاناه الجهال) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٥٠٤/١).

لقد بذل ابن الجوزي كل امكاناته لخدمة الدين الاسلامي والدعوة الصادقة لله سبحانه وتعالى، قال سبطه شمس الدين أبو المظفر: (سمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونصراني) (الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢).

لقد كان تأثير ابن الجوزي في الحياة الاجتماعية كبيرا، ومازال تأثيره الى وقتنا هذا، ولم يشهد الاهتمام بدوره في ذلك عبر العصور اي تهافت وانما تواترت اخبار تأثيره على الدوام.

المطلب الثالث: استهدافه الطبقة الخاصة بالوعظ والنصيحة

ومن عوامل تأثيره بالحياة الاجتماعية عدم اهماله الطبقة الخاصة، فكان اهتمامه بوعظ الحكام واسداء النصيحة لهم مستمرا على الدوام ولا شك ان صلاح الرعية بصلاح الراعي، وقد اعتمد ابن الجوزي منهجا سليما ودقيقا في ذلك، يقول رحمه الله: (ينبغي لمن وعظ سلطانا ان يبالغ في التلطف ولا يواجهه بما يقتضي انه ظالم فان السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة، فاذا جرى نوع توبيخ لهرم، كان اذلالا، وهم لا يحتملون ذلك، وانما ينبغي ان يمزج وعظه بذكر شرف الولاية، وحصول الثواب في رعاية الرعايا، وذكر سير العادلين من اسلافهم) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٤١٤/١).

ومن ثم يوجه نصيحة أخرى لأهل الوعظ في مجالستهم للسلاطين فيقول:(لينظر الواعظ في حال الموعوظ قبل وعظه، فان رأى سيرته حميدة كما كان منصور بن عمار وغيره يعظون الرشيد وهو يبكي وقصده الخير، زاد في وعظه ووصيته، وان رآه ظالما لايلتفت الى الخير وقد غلب عليه الجهل اجتهد في الا يراه ولايعظه لانه ان وعظه خاطر بنفسه، وان مدحه كان مداهنا فان اضطر الى موعظته كانت كالاشارة) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٤١٤/١).

كما يقارن بين الحكام وقبولهم للنصيحة والوعظ فيقول: (وقد كان اقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة ويحتملون الواعظين حتى انه قد كان المنصور يواجه بانك ظالم فيصبر، وقد تغير الزمان، وفسد اكثر الولاة وداهنهم العلماء ومن لايداهن لايجد قبولا للصواب فيسكت) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٤١٤/١).

كما حذر ابن الجوزي من جهل الولاة والتحرز في وعظهم دون تروي فيقول: (وقد كانت الولايات لايسالها الا من احكمته العلوم وثقفته التجارب فصار اكثر الولاة يتساوون في الجهل فتاتي الولاية على من ليس من اهلها ومثل هؤلاء ينبغي الحذر منهم والبعد عنهم فمن ابتلى بوعظهم فليكن على غاية التحرز فيما يقول ولاينبغي ان يغتر بقولهم: عظنا. فانه لو قال كلمة لا توافق اغراضهم ثارت حرارتهم) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٤١٤/١).

كما ينبه للحذر بالتعريض بالولاة لانهم سيكيدون له المكائد والدسائس فيقول:

(وليحذر مذكر السلطان ان يعرض له بارباب الولايات فانهم اذا سمعوا بذلك صار الواعظ مقصودا لهم بالاهلاك، خوفا من ان يعتبر السلطان احوالهم فتفسد امورهم والبعد في هذا الزمان عنهم اصلح، والسكوت عن المواعظ لهم اسلم، فمن اضطر تلطف غاية التلطف وجعل وعظه للعوام وهم يسمعون ولا يعينهم منه بشيء) (ابن الجوزي، ١٤٢٥هـ، ٤١٤/١).

وسنقف عند بعض نماذج وعظه للخلفاء، ففي سنة (٥٧٤هـ) تكلم ابن الجوزي بحضور أمير المؤمنين الخليفة المستضيء بأمر الله فكان مما قاله: (ولو اني مثلت بين يدي السدة الشريفة لقلت يا امير المومنين كن لله سبحانه مع حاجتك اليه كما كان لك مع غناه عنك انه لم يجعل احدا فوقك فلاترض ان يكون احد اشكر منك. فتصدق يومئذ امير المومنين عقيب المجلس بصدقات واطلق محبوسين) (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ، ٢٥٠/١٨).

وفي السنة نفسها وعظ الناس والخليفة جالس مع الحضور فقال ابن الجوزي رحمه الله: (وتكلمت يوم الخميس بعد العصر تاسع رجب تحت المنظرة وامير المؤمنين حاضر والزحام شديد والباب مغلق لشدة الزحام وبالغت في وعظ امير المؤمنين فمما حكيت له ان الرشيد قال لشيبان عظني فقال: يا امير المؤمنين لان تصحب من يخوفك حتى يدركك الخوف. قال الرشيد فسر لي هذا. قال: من يقول لك انت مسئول عن الرعية فاتق الله انصح لك ممن يقول أنتم اهل بيت مغفور لكم وانتم قرابة نبيكم. فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله. وقلت له في كلامي: يا امير المؤمنين ان تكلمت خفت منك وان سكت خفت عليك، فانا أقدم خوفي عليك لمحبتي لك على خوفي منك) (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ، ٢٥٠/١٨؛ ابن مفلح، د.ت، ١٧٧/١؛ السفاريني، ١٤١٤هـ، ٢٣٤/١).

ومن لطائف وعظه قوله: (اذكر عند القدرة عدل الله فيك وعند العقوبة قدرة الله عليك واياك ان تشـــفي غيظك بســـقم دينك) (الذهبي، ٢٠٠٣، ١١٠٠/١٢).

يتبين لنا اهتمام ابن الجوزي بوعظ الخاصـة لمعفرته حقيقة اثر ذلك في حياة الناس، فلم يكن يطلب الدنيا في ذلك، وانما يقصـد رضـا الله بتيسير امور الخلق، وتذليل العقبات امامهم، ونشر الموعظة الحسنة بينهم.

الخاتمة

مما تقدم من دراسة لدروس وعظ الامام ابن الجوزي وبيان أثرها في الحياة الاجتماعية يتبين لنا ما يأتي:

اولا: ان الامام ابن الجوزي كان واسع المهارات والفنون في العلم والفتيا والتأليف والوعظ حتى شاع صيته في الآفاق.

ثانيا: ظن البعض ان اول وعظه كان في سنة (٥٢٧هـ) لأنه ذكر انه وعظ امام الشيخ ابي القاسم علي بن يعلي، لكن الحقيقة ان ابن الجوزي يذكر هنا في احداث سنة ٥٢٧هـ وفاة الشيخ ابي القاسم علي بن يعلي وليس سنة وعظه امامه، وانما الذي يبين تاريخ وعظه الاول هو في سنة (٥٢٠هـ) والله تعالى أعلم.

ثالثا: قوة تأثير ابن الجوزي وتفنن اســـلوبه على الســـامعين، فكان رحمه الله مبدعا في تلوين الخطاب واســـتعمال الفنون البلاغية وعلى كافة المستويات.

رابعا: رسـم ابن الجوزي في مواعظه منهجا سـليما افادت منه الاجيال كثيرا، وهو قد قرن العلم بالعمل، والباطن مع الظاهر فكتب له القبول في الارض، ومن عوامل وأسباب القبول له صدقه واخلاصه وابتغاؤه وجه الله تعالى.

خامسا: لقد كان تأثير ابن الجوزي في الحياة الاجتماعية كبيرا، ومازال تأثيره الى وقتنا هذا، ولم يشهد الاهتمام بدوره في ذلك عبر العصور اي تهافت وانما تواترت اخبار تأثيره على الدوام.

سادسا: اهتمام ابن الجوزي بوعظ الخاصـة لمعفرته حقيقة اثر ذلك في حياة الناس، فلم يكن يطلب الدنيا في ذلك، وانما يقصـد رضـا الله بتيسير امور الخلق، وتذليل العقبات امامهم، ونشر الموعظة الحسنة بينهم.

ختاما نسأل الله تعالى التوفيق والسداد انه سميع مجيب وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم .(1995) .مجموع الفتاوى .(عبد الرحمن بن محمد بن قاســـم، جمع وترتيب). مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢. ابن جبير، محمد بن أحمد. (د.ت.) .رحلة ابن جبير .دار بيروت للطباعة والنشر.

٣. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (د.ت.) .لفتة الكبد إلى نصيحة الولد .(عبد الحميد محمد الدرويش، تحقيق). دار المقتبس.

٤. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي .(2004) .صيد الخاطر .(حسن المساحي سويدان، عناية). دار القلم.

٥. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (١٤١٢هـــــ - ١٩٩٢م) .المنتظم في تاريخ الأمم والملوك .(محمد عبد القادر عطا ومصـطفى عبد القادر عطا، تحقيق). دار الكتب العلمية.

٦. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (د.ت.) .تنبيه النائم الغمر على مواســـم العمر .(محمد بن ناصـــر العجمي، تحقيق). دار البشـــائر الإسلامية.

٧. ابن خلكان، أحمد بن محمد .(1994) .وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .(إحسان عباس، تحقيق). دار صادر.

٨. ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد. (١٤٢٥هـــــ - ٢٠٠٥م) .ذيل طبقات الحنابلة .(عبد الرحمن بن سـليمان العثيمين، تحقيق). مكتبة العبيكان.

٩. ابن سيده، علي بن إسماعيل. (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) .المخصص .(خليل إبراهم جفال، تحقيق). دار إحياء التراث العربي.

١٠. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) .البداية والنهاية .دار الفكر.

١١. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤هـ) .لسان العرب .(الطبعة الثالثة). دار صادر.

١٢. الأصبهاني، عماد الدين الكاتب .(1971) .خريدة القصر وجريدة العصر .(آذرتاش آذرنوش وآخرون، تحقيق). الدار التونسية للنشر.

١٣. الجرجاني، علي بن محمد. (١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) .كتاب التعريفات .(جماعة من العلماء، ضبط). دار الكتب العلمية.

١٤. الجوهري، إسماعيل بن حماد. (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م) .الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية .(أحمد عبد الغفور عطار، تحقيق). (الطبعة الرابعة). دار العلم للملايين.

١٥. الذهبي، محمد بن أحمد .(2003) .تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام .(بشار عواد، تحقيق). (الطبعة الأولى). دار الغرب الإسلامي.

١٦. الذهبي، محمد بن أحمد. (د.ت.) .العبر في خبر من غبر .(أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، تحقيق). دار الكتب العلمية.

١٧. السفاريني الحنبلي، محمد بن أحمد. (١٤١٤هـ – ١٩٩٣م) .غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب .(الطبعة الثانية). مؤسسة قرطبة.

١٨. سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزْأُوغلي. (١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م) .مرآة الزمان في تواريخ الأعيان .(محمد بركات وآخرون، تحقيق). (الطبعة الأولى). دار الرسالة العالمية.

١٩. طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى .(1985) .مفتاح السعادة ومصباح السيادة .(الطبعة الأولى). دار الكتب العلمية.

٢٠. الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (د.ت.) .كتاب العين .(مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، تحقيق). دار ومكتبة الهلال.

٢١. المقدسي الحنبلي، محمد بن مفلح. (د.ت.) .الآداب الشرعية والمنح المرعية .عالم الكتب.

٢٢. المناوي، محمد عبد الرؤوف .(1990) .التوقيف على مهمات التعاريف .(الطبعة الأولى). عالم الكتب.

٢٣. ياقوت الحموي، شهاب الدين .(1995) .معجم البلدان .(الطبعة الثانية). دار صادر.

٢٤. يالجن، مقداد. (١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م) .علم الأخلاق الإسلامية .(الطبعة الثانية). دار عالم الكتب.

Reference

1. Ibn Taymiyyah, Ahmad ibn Abd al-Halim. (1995). *Majmu' al-Fatawa* (Collection of Fatwas). (Compiled and arranged by Abd al-Rahman ibn Muhammad ibn Qasim). King Fahd Complex for the Printing of the Holy Quran.
2. Ibn Jubayr, Muhammad ibn Ahmad. (n.d.). *Rihlat Ibn Jubayr* (The Travels of Ibn Jubayr). Dar Beirut for Printing and Publishing.
3. Ibn al-Jawzi, Abd al-Rahman ibn Ali. (n.d.). *Lafzat al-Kabad ila Nasihah al-Walad* (A Sincere Word of Advice to a Son). (Edited by Abd al-Hamid Muhammad al-Darwish). Dar al-Muqtabis.
4. Ibn al-Jawzi, Abd al-Rahman ibn Ali. (2004). *Sayd al-Khatir* (Captured Thoughts). (Supervised by Hasan al-Musahi Suwaydan). Dar al-Qalam.
5. Ibn al-Jawzi, Abd al-Rahman ibn Ali. (1412 AH - 1992 AD). *Al-Muntazam fi Tarikh al-Umam wa al-Muluk* (The Arranged History of Nations and Kings). (Edited by Muhammad Abd al-Qadir Ata and Mustafa Abd al-Qadir Ata). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
6. Ibn al-Jawzi, Abd al-Rahman ibn Ali. (n.d.). *Tanbih al-Na'im al-Ghamr ala Mawasim al-Umr* (Alerting the Careless Sleeper to the Seasons of Life). (Edited by Muhammad ibn Nasir al-Ajmi). Dar al-Basha'ir al-Islamiyyah.
7. Ibn Khallikan, Ahmad ibn Muhammad. (1994). *Wafayat al-A'yan wa Anba' Abna' al-Zaman* (Obituaries of Eminent Men and History of the Contemporaries). (Edited by Ihsan Abbas). Dar Sadir.
8. Ibn Rajab al-Hanbali, Abd al-Rahman ibn Ahmad. (1425 AH - 2005 AD). *Dhayl Tabaqat al-Hanabilah* (Supplement to the Classes of the Hanbali Scholars). (Edited by Abd al-Rahman ibn Sulayman al-Uthaymin). Obeikan Library.
9. Ibn Sidah, Ali ibn Ismail. (1417 AH - 1996 AD). *Al-Mukhassas* (The Specialized Lexicon). (Edited by Khalil Ibrahim Jaffal). Dar Ihya al-Turath al-Arabi.
10. Ibn Kathir, Ismail ibn Umar. (1407 AH - 1986 AD). *Al-Bidayah wa al-Nihayah* (The Beginning and The End). Dar al-Fikr.
11. Ibn Manzur, Muhammad ibn Mukarram. (1414 AH). *Lisan al-Arab* (The Tongue of the Arabs). (3rd ed.). Dar Sadir.
12. Al-Isfahani, Imad al-Din al-Katib. (1971). *Kharidat al-Qasr wa Jaridat al-Asr* (The Pearl of the Palace and the Chronicle of the Age). (Edited by Azartash Azarnush and others). Al-Dar al-Tunisiyyah li al-Nashr.
13. Al-Jurjani, Ali ibn Muhammad. (1403 AH - 1983 AD). *Kitab al-Ta'rifat* (The Book of Definitions). (Edited by a group of scholars). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

14. Al-Jawhari, Ismail ibn Hammad. (1407 AH - 1987 AD). *Al-Sihah Taj al-Lughah wa Sihah al-Arabiyyah* (The Correct Crown of Language and the Arabic Sahah). (Edited by Ahmad Abd al-Ghafur Attar). (4th ed.). Dar al-Ilm li al-Malayin.
15. Al-Dhahabi, Muhammad ibn Ahmad. (2003). *Tarikh al-Islam wa Wafayat al-Mashahir wa al-A'lam* (The History of Islam and the Deaths of Famous Figures and Notables). (Edited by Bashshar Awwad). (1st ed.). Dar al-Gharb al-Islami.
16. Al-Dhahabi, Muhammad ibn Ahmad. (n.d.). *Al-Ibar fi Khabar man Ghabar* (The Lessons in the Narratives of Those Who Have Passed). (Edited by Abu Hajar Muhammad al-Said ibn Basyuni Zaghlul). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
17. Al-Saffarini al-Hanbali, Muhammad ibn Ahmad. (1414 AH - 1993 AD). *Ghidha' al-Albab fi Sharh Manzumat al-Adab* (Nourishment for Minds in Explaining the Poem of Etiquette). (2nd ed.). Muassasat Qurtubah.
18. Sibt Ibn al-Jawzi, Yusuf ibn Qizughli. (1434 AH - 2013 AD). *Mir'at al-Zaman fi Tawarikh al-A'yan* (The Mirror of Time in the Histories of Notables). (Edited by Muhammad Barakat and others). (1st ed.). Dar al-Risalah al-Alamiyyah.
19. Tashkopriuzadah, Ahmad ibn Mustafa. (1985). *Miftah al-Sa'adah wa Misbah al-Siyadah* (The Key to Happiness and the Lamp of Mastery). (1st ed.). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
20. Al-Farahidi, Al-Khalil ibn Ahmad. (n.d.). *Kitab al-Ayn* (The Book of 'Ayn). (Edited by Mahdi al-Makhzumi and Ibrahim al-Samarrai). Dar wa Maktabat al-Hilal.
21. Al-Maqdisi al-Hanbali, Muhammad ibn Muflih. (n.d.). *Al-Adab al-Shar'iyyah wa al-Minah al-Mar'iyyah* (Legitimate Etiquettes and Laudable Gifts). Alam al-Kutub.
22. Al-Munawi, Muhammad Abd al-Ra'uf. (1990). *Al-Tawqif ala Muhimmat al-Ta'arif* (Guidance on Important Definitions). (1st ed.). Alam al-Kutub.
23. Yaqut al-Hamawi, Shihab al-Din. (1995). *Mu'jam al-Buldan* (Dictionary of Countries). (2nd ed.). Dar Sadir.
24. Yaljin, Miqdad. (1424 AH - 2003 AD). *Ilm al-Akhlaq al-Islamiyyah* (The Science of Islamic Ethics). (2nd ed.). Dar Alam al-Kutub.